

بين علم النفس والاسلام

دكتور سيد أحمد عثمان *

أحمد الله الذى هدانا وعلمنا ، وجعلنا خلفاء وأمناء ، وأحمده سبحانه على أن بث فى قلوبنا من حب الاسلام وحب (الدعوة اليه) وحب أن نراه مبعوث فى ثنايا الحياة وراسخا فى أصولها ، متمكنا من جذورها ، وقائمة عليه أعمدها وأركانها ما به نعمل بحرص ، وندعو بأمانة ، ونجاهد بصدق ، فى سبيل أن تشرق شمس الاسلام - وهى متجددة الشروق أبدا فى أفق كل مجتمع مسلم ، ليعم نورها سبل ترقى الانسان وتزكيه ، بقدر ما يعمر وجدان الانسان وينقيه .

ثم أحمده جل ثناؤه أن وجدنا اخوة غيورين على أن يروا علم النفس فى عالمنا الاسلامى وقد أصبح ينتمى - بحق - الى مجتمعاتنا العلمية المسلمة . وقد تجلى ذلك فى اقتراح برز فى احدى كليات التربية بالمملكة العربية السعودية بانشاء مقررين فى قسم علم النفس يكونان بداية لتأصيل علمى لاتجاه اسلامى فى علم النفس ، هذان المقرران هما :

أولا : الدراسات النفسية فى الفكر الاسلامى .

ثانيا : التفسير الاسلامى للسلوك .

وبدافع من الأمانة التى حملنا اياها كعاملين فى حقل العلم ، كمسلمين كان لابد أن ندلى بؤاينا فى هذين المقررين :

أما بالنسبة الى المقرر الأول : فخلاصة رأى فيه :

١ - أنه ضرورى من حيث هو تمهيد تاريخى ، ومهاد فكرى لكل دارس مسلم فى علم النفس فى مجتمعنا .

(*) أستاذ علم النفس التعليمى بكلية التربية بجامعة عين شمس .

٢ - على أن يكون هذا الدارس عارفا ، أو ملما ، فى أقل تقدير ، بتاريخ الفكر الفلسفى القديم الذى تأثر به المفكرون المسلمون فيما تناولوه من دراسة فلسفية حول النفس •

٣ - وهذا الامام ضرورى كذلك حتى يتبين الدارس ما أضافه المفكرون المسلمون من أفكار ، وآراء ، كانت نتاج فكرهم الدينى الاسلامى •

٤ - واننى لأدرك ما قد ينهض من اعتراضات حول الفكر الفلسفى ، بصفة عامة ، من اعتراضات ، ولكننى أرى أن الامام بمعالم الفكر الفلسفى القديم ضرورة منهجية ، وحاجة تعليمية للدراسة العلمية السليمة للفكر النفسى لعلمائنا المسلمين •

٥ - غير أن من علمائنا المسلمين الاجلاء أولئك من كانت له أفكار ، وآراء ، وبصائر • لها قيمتها النفسية التى لا يمكن أن تنكر ، والتى نحتاج الى تعرفها ، والفتها ، وابرازها ، وفهمها ، واتاحة المجال لها للتفاعل مع بماء فكرنا النفسى المعاصر •

٦ - وانه من الضرورى كذلك أن ندرس تلك الأفكار فى « اطارها التاريخى » ، أى ندرسها من حيث هى نبت زمانها ، وثبت أوانها ، لا نفرض عليها تصورا من عندنا ، فلا نقول ، مثلا ، « نظرية » نفسية عن فكر مسلم قديم ، ان النظرية نتاج حديث جدا فى العلم الحديث ومناهج البحث فيه • لهذا كنت شديد الحرص عندما تقدمت فى مؤتمر « علم النفس والاسلام » الذى عقد فى جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) بكلية التربية فى أكتوبر عام ١٩٧٨ ، كنت شديد الحرص على أن يكون عنوان هذا المقرر الذى اقترحت ادخاله ضمن دراساتنا فى علم النفس هو •• الدراسات النفسية « لا النظريات النفسية ، عند المفكرين المسلمين •

٧ - وكذلك لا يمكن أن تكون دراستنا لفكر علمائنا المسلمين الاجلاء مقصودا به الاكتفاء به ، والاستغناء به ، عن الفكر النفسى المعاصر فى اتساعه ، وتجديده ، وتغيره ، بل فى تأزمه وتعثره •

٨ - كما أننا لا ينبغي أن نقف فى دراستنا للفكر النفسى لعلمائنا المسلمين

عند عصر بعينه ، ولا عند اتجاه بذاته ، بل تكون دراساتها شاملة ، ومستغرقة للحديث ، الى جانب القديم (مثلا : ندرس ابن القيم ، وابن سينا بل أرى أن يكون للفكر النفسى لدى المفكرين المسلمين المعاصرين مكان فى هذه الدراسة .

٩ - وانه من الواضح مما سلف أن من يقدم على تدريس مثل هذا المقرر لا بد أن يستند الى أساس تاريخى رحب ، والى اهتمام جاد بالجانب النفسى لدى مفكرينا المسلمين ، مع تمكن من تاريخ علم النفس الحديث ذاته ، والمؤثرات الفكرية التى أثرت فى تشكيله وفى تطويره .

١٠ - وانه من الممكن أن يكون هذا المقرر على مستويين ، مستوى أولى ، عام ، مبسط ، ولا بأس بأن يكون تدريسه فى مستوى اللىسانس والبكالوريوس ، ثم مستوى آخر يكون أكثر تقدما ، وتعمقا ، وتفصيلا ، وتأصيلا فى نظراته وتحليلاته .

أما المقرر الاخر ، وهو « التفسير الاسلامى للسلوك » ، فأنت تذكر أن مرفقى منه كان متحفظا جدا ، وقد أجملت لك رأى فيه فى لقائنا القصير جدا ، والمركز جدا ، والمفيد جدا ، فيما أرجو ان شاء الله ، وقد كان رأى أن يكون المقرر تحت عنوان : « التوجيه الاسلامى للشخصية » ، وسقت لك جانبيا من رأى . وأكتب لك هنا خلاصة لجملة رأى فى هذا الامر :

١ - ان أى تفسير للسلوك لا بد أن يكون تفسيرا محدودا ، أى يركز على جانب ، أو بعد ، أو قوة ، فى الحياة النفسية للانسان ، ويحاول أن يتخذ منها محورا يدور حوله التفسير . أما السلوك فى اتساعه ، وأما الحياة النفسية فى تعقدها وتعددتها ، وسيولتها وتعمقها ، واستمرارها واتصالها ، فلا يمكن أن يدعى أى تصور « علمى » ، أو أية نظرية علمية أنها تفسرها فى جملتها . أى أن التفسير العلمى للسلوك فى علم النفس هو بالضرورة تفسير نسبى ، من جهة . ومتحيز لموقفه ، أو لموقعه ، أو لوجهة نظره ، من الجهة الأخرى . فكيف يقدم الاسلام تفسيرا علميا للسلوك على هذا الوجه ؟ اننى لا أرى سبيلا الى هذا ما دمنا نلتزم ، ولا بد ، بأن يكون التفسير الذى نقدمه له خصائص العلمية .

٢ - ثم نأتى الى مصطلح « السلوك » الذى ورد ذكره فى المقرر المقترح ، فاقول : ان هذا المصطلح من أشد مصطلحات علم النفس المعاصر غموضا على الرغم من أنه • مع الأسف ، من أكثرها ، أو كان من أكثرها شيوعا ، هو مصطلح مبهم ، اذا وقفنا فى تعاملنا معه عند السلوك الظاهر ، اذ ليس السلوك الظاهر عند الانسان سوى مظهر ، أو معبر ، أو معبر ، عن أعماق ، وعمليات دينامية ، تاريخية ، وادراكية ، وواقعية ، مما لا يمكن فهمه لو اكتفينا ، ووقفنا عند السلوك الظاهر ، ثم اننا لو وسعنا مفهوم السلوك بحيث يستوعب كافة العمليات النفسية الداخلية ، الداعمة منها ، من ادراك وحكم وتقدير ، وتفكير ، وابداع ، وغير الداعمة من دوافع ، وتقويمات ، وتفصيلات ، وغيرها ، أقول : لو أننا وسعنا مفهوم السلوك ليشمل هذا كله ، لو وجدناه ، أى السلوك • وقد فقد معناه من شدة ما وسعناه • فمصطلح السلوك اذن هو مصطلح غير صالح أصلا لأن نضع له تفسيرا ، وخيرا . يفعل علم النفس المعاصر اذ يغود الى توكيد ما كان مؤكدا سابقا من أن علم النفس هو علم الحياة العقلية •

٣ - ثم اننا حتى لو افترضنا أن تفسيرا علميا اسلاميا للسلوك ممكن تقديمه ، فكيف يكون موقف هذا التفسير من التفسيرات العلمية الأخرى فى علم النفس القائمة الآن ؟ هل نحاول التوفيق بينها وبينه ؟ هل نحاول نقضها به ؟ هل نفضله عليها ؟ وغالبا ما يكون الجواب على السؤال الاخير بالايجاب هو موقفنا ، وأن نفضل التفسير الذى نقدمه على غيره من التفسيرات • وعندئذ : أ - نعطي طلابنا درسا فى عدم الحياد العلمى الذى يجب أن يدرّبوا عليه ليكونوا علماء بحق ، و ب - نفتح ميدانا لتصاريح الآراء المعارضة • لتأخذ ذلك التفسير الاسلامى الذى نفضله ، وتحلله وتفنده ، وتنقده ، وتبرز ما فيه من نواقص ، وتبين ما فى التفسيرات العلمية المعاصرة الأخرى من جوانب قوة وتفوق عليه • وبذا نكون قد فتحنا بابا لكل طارق ، ولفتنا الى أفق لكل ناعق •

٤ - أما السبيل الذى أراه أسلم ، وأقوم ، وأهدى ، وأمن ، فهو ذو شعبتين ، أما الشعبة الأولى فهى أن ندرس علم النفس المعاصر من حيث هو علم له أصوله ، ومناهجه ، وطرائقه ، ومدارسه ، بل له أساليب نقده وتعديله الذاتية ، وأن نستوعب نظرياته ونتائج ، استيعاب الواعى بما فيها من

صحة وعلة ، وقوة وضعف . . . إذ لا يمكن أن تكون لنا ذاتية اسلامية فى دراسة علم النفس ، ولا يمكن أن توصل اتجاهها اسلاميا فى علم النفس ، دون هذا الاستيعاب المتمكن ، والدرس الفاهم ، والمعرفة الواعية بعلم النفس المعاصر .

أما الشعبة الأخرى فى السبيل الذى أرتضيه فهى أن نفيد الى أقصى حد ممكن من دراستنا المستبصرة تلك لعلم النفس المعاصر ، نفيد منها فى التطبيق فى مجالات الحياة المختلفة بالنسبة الى الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم . وائنى لأرى فى هذا استجابة للدعوة الاسلامية التى تتردد قوية ناصعة فى كتاب هدايتنا الكريم الى أن نعد ما نستطيع من قوة . والقوة هنا هى قوة التطبيق الرشيد ، والمسترشد بأى نتائج علمى فيه مضلحة للفرد المسلم ولجتمعه .

٥ - وائنى لأرى أن من تحقق ذلك السبيل ، بشعبتيه ، فى موضوع نظرنا هنا بالنسبة الى المقرر المقترح عن « التفسير الاسلامى للسلوك » ، من تحقق ذلك السبيل أن نستبدل بذلك العنوان المقترح عنوانا آخر هو « التوجيه الاسلامى للشخصية » . ولا يقف الأمر هنا عند مجرد تبديل عنوان بعنوان ، أو مصطلح بمصطلح ، فيعارض معارض بأنه لا مشاحة فى المصطلحات ، بل الأمر أبعد من هذا كثيرا ، ذلك لأنه يضرب فى صميم الموقف ، وجسوه التوجيه ، وقوة التوجيه للمصطلح ، أو العبارة ، أو العنوان . ذلك لأن المصطلح ، فى العلم خاصة ، له قوته الفعالة ، حتى وان خفيت ، وله تأثيره العميق ، حتى وان خفت . ففرق كبير بين أن أقول « تفسير » وأن أقول « توجيه » ، وفرق كبير كذلك بين أن أقول « سلوك » وأن أقول « شخصية » ، وفرق أكبر بين أقول « تفسير اسلامى » وأن أقول « توجيه اسلامى » .

٦ - هذا المقرر الذى أقترحه بديلا ، وأعنى به مقرر « التوجيه الاسلامى للشخصية » ذو صبغة تطبيقية ، اخلاقية ، إذ فيه ممازجة بشكل طبيعى ، وسليم ، سواء نظرنا اليه من الناحية المنهجية ، أو من الناحية العلمية ، فيه ممازجة من نتائج الدراسات المختلفة فى علم النفس ، وبين التوجيه الاخلاقى للشخصية المسلمة . وان فى هذا ، فيما أرى ، اقامة « لتوجيه الشخصية المسلمة ، وصياغتها ، على أساس علمى متين ، ومتطور ، يمكن أن نفيد فيه

من كافة نتائج دراسات علم النفس المعاصر فى مجالاتها المتعددة ، وخاصة ما كان منها متصلا ب : النمو ، الادراك ، التعلم ، الشخصية ، الارشاد ، علم نفس الجماعة الصغيرة ، علم النفس الاجتماعى .

٧ - وأتوقع أن يؤدي نمو مثل هذا المقرر ، وتطويره ، واثراؤه ، الى ارساء أصول ما يمكن أن أسميه « علم خلق characterolog اسلامى وأن يكون فى هذا ، ان شاء الله ، دعم ، وتأمين ، للاتجاه الاسلامى فى علم النفس ، ذلك الاتجاه الذى أرى أنه لا ينشأ انشاء كاملا مرة واحدة ، بل يتبع سنة نشأة كل كيان حى ، تبدأ فى سكينه ، وتنمو فى أدب ، وتتقدم فى ثقة ، الى أن نرى ذلك الكيان الحى قويا قادرا على أن يبرز ذاتيته ، وأن يؤكد فعاليته . أما النشأة الكاملة ، أو الانشاء المتعجل ، فانه لن يخلع على الكيان الحى من الحياة الا هيئتها ، ومن الحيوية الا أضعفها ، ذلك بأنه سوف يكون كيانا مصطنعا لا روح فيه ، ووجودا أجوفا لا قلب له ، وشكلا مجمعة أجزاءه بعضها الى بعض بلا تكامل أو ترابط أو تدامج ، فلا يكون له معنى يغنى ، ولا قيمة تفيد ، ولا دواما فيه نماؤه وبه جدواه .

٨ - وان فى المقرر الذى اقترحه ، وهو « التوجيه الاسلامى للشخصية » ، مماشاة ، وتوافقا ، مع الاتجاه التربوى الأساسى فى الاسلام الذى هو صياغة ، وتشكيل ، وتوكيد لسلمات نفسية ، وخصائص أخلاقية ، وصفات اجتماعية ، بل اتجاهات معرفية وانفعالية لشخصية المسلم ، ناشئا وراشدا ، كأن فى هذا المقرر تزويدا للتربية الاسلامية بأسس نفسية ترفع من فعاليتها ، وتزيد من كفاءتها . فهذا المقرر اذن ليس فيه تعارض أو تنافر مع تربية المسلم ، بل فيه انسجام واتساق مع الأصول الاسلامية التى تقوم عليها هذه التربية ، كما أن هذا المقرر ليس مناقضا ولا مناهضا ، ولا مخالفا أو مجاوزا ، لأصول العلم وقواعد مناهجه .

٩ - واننى أرى أن التربية عندنا ، سواء فى جانب ممارساتها العملية ، أو تصوراتها النظرية ، فى أمس الحاجة الى هذا العون النفسى الذى يمكن أن يقدمه المقرر الذى اقترحه .

١٠ - ثم أصل الى تصورى عن العناصر ، أو الموضوعات العامة التى

أرى أنه تتضمنها الدراسة في هذا المقرر الذى اقترحه ، وأرانى فى غير حاجة الى توكيد أن ما اقترحه هنا من عناصر ، أو موضوعات ، قابل للتطوير ، أو التفصيل أو التقديم ، أو التأخير ، مادامنا محتفظين بالسياق العام الذى يضمها ، وبالنسق الشامل الذى ينتظمها . أما هذه العناصر أو الموضوعات التى اقترحها فأعرضها كما يلى :

(أ) ماذا نعنى بالتوجيه الاسلامى للشخصية ؟

(ب) أهمية دراسته .

(ج) وسائل التوجيه الاسلامى للشخصية ، ووسائله .

(د) التوجيه فى جوانب الشخصية المختلفة :

- ١ - فى الجانب الحركى .
- ٢ - فى الجانب المعرفى .
- ٣ - فى الجانب الانفعالى .
- ٤ - فى الجانب الاجتماعى .
- ٥ - فى الجانب الاخلاقى .
- ٦ - فى الجانب الجمالى .
- ٧ - فى الجانب الدينى .

(هـ) تكامل التوجيه ، وتكامل الشخصية .

(و) الصحة النفسية للشخصية المسلمة :

- الشخصية المسلمة فى مواجهة : مشكلات التوافق .
- الأزمات ، الاعتلال النفسى .

(ز) الرعاية النفسية للشخصية المسلمة :

- ١ - الارشاد النفسى للشخصية المسلمة .
- ٢ - الوقاية النفسية للشخصية المسلمة .

هذا يا أخی مما هدانی الله الیه ، وما اجتهدت فیہ اجتهادا خالصا ،
فیما أرجو ، لوجهه تعالی ، حرص علی اسلامنا أن یرقی قویا نامیا ، وعلی
علوم عصرنا ، ومن بینها علم النفس ، أن یرقی صحیحة سلیمة ، لأنه لا سبیل
لنا لنفید منها حق الفائدة الا بصحتها وسلامتها . وانه بالاسلام القوی
النامی ، وبالعلم الصحیح السلیم ، نقدر علی أن نحقق المجتمع المسلم
المتوازن الفعال ، الذی یحیا فیہ الفرد المسلم المتسامی بأخلاقیته ، المترقی
لوعیه ، المتجمل بذوقه ، المتزکی بإرادته .

واننی لفی انتظار مناقشات حول ما وصلت الیه ، والخیر معقود دائما
بالنیة الخالصة ، والاجتهاد الصادق ، والجهاد العلمی الذی لا غایة له الا
رضا الله جلت قدرته .

والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته

هـ ١٤٠٦/٥/١٣

م ١٩٨٦/١/٢٣

سید عثمان